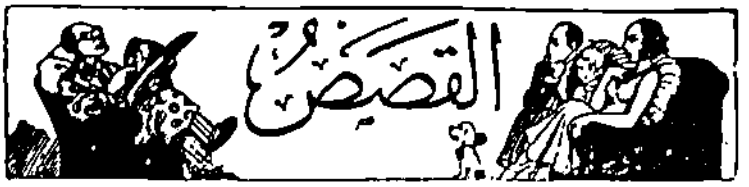

مجنون ...

للأديب الفرنسي هنري دي موباسان

أبي مس من جنون ؟ أم أن مابي فيض من غيرة فحسب ؟ لست أدري من أمر مابي شيئاً ، ولكنني أكابد مر العذاب ، ومض الألم . لقد اجترمت يداي إثماً طيش ، طيش أهوج مجنون ، إن هذا لحق. ولكن ألا تكفي هذه النيرة الرابية المبهورة، وذاك الحب الثائر الخائن الملعون، وهذا الألم الباهظ المقوت — ألا يكفي كل هذا لأن نأتي إثماً من الأمر وسخفا دون أن ينزع منا إلى هذا السخف أو ذاك الإثم عقل أو فؤاد ؟

أواه ! إني لآسى وآلم ... وآلم من عذاب دائم حاد مفرط . لقد أحببت تلك المرأة حبا سليطاً طاغياً . ولكن أكان حبها حقا ؟ أعلقتها ؟ كلا ثم كلا ! لقد ملكت على حسي ، وحالت بيني وبين نفسي ... أسرت وصرعت ، فكنت في يدها — وما أزال — دمية . كنت ملك النظرة الخاطفة ، واللحظ الرهيف ؛ أسير الغلالة والقد الدقيق ؛ عبد التبسم والشفاه ... وكنت ألهث إذا ما تسلط على هيكلها وتآمر ... ولكنها هي ، صاحبة كل هذا ، وكائنة هذا الجسد ، أمقتها وأحقرها وألعنها . فقد كانت كدرة غادرة ، وكانت دنسة ماكرة ، وكانت محط الفساد ومهبط السوء . إنها لحيوان فاسد مثير تخلى عن الروح فتخلت عنه ولم تعد بعد فيه ؛ ولم يعد يسير عقله كما يسير نسيم منعش متطلق .. إنها البهيم الآدمي ، بل هي أحط من هذا وأقذر . إنها ردغة مستوحلة . هي آية من آيات الجمال البض الغريض سكنت دار الخزي والعار

كان اتصالنا في أول الأمر غريباً جميلا . وكان يقتلني — بين ذراعيها المفتوحتين أبداً — جنون الرغبة الملحة العانية . وعيناها كانتا تفغران في كأنما ألهب حلقي العطش . كانتا سنجابيتين حين الظهيرة ، مشوبتين بخضرة وقت دلوك الشمس ، وكانتا زرقاوين إبان الشروق . . ليس بي مس من جنون ، فإني لأقسم أن كان لعينها هاته الألوان الثلاثة . فهما في أحايين الحب زرقاوان ثاقبتان ، يتوسطهما إنسانان كبيران مضطربان ، وشفتاها تقلصهما رعدة محمومة ، فربما انفجرتا عن طرف لسان ريق أحمر يتحرك كلسان الأفعوان، وجفناها النضيضان الناعسان تشرعهما في وناء وهينة ، فتكشف عن نظرة مضطرمة وارية ، كانت تزيدني جنوناً . وكنت أحتدم غيظاً إذا ما رأيت نظرتها هذه لدى العناق ، وأرجف حقاً ورغبة أن أقتل هذا الحيوان الذي تلحف الضرورة في بقائه

يرمى طائفة من المسلمين بما هم منه براء ! فهو يقول (إن الطنطاوى تابع في تكفيره البوصيرى محمد بن عبد الوهاب إمام حنابلة نجد) فالإمام المجدد ابن عبد الوهاب — رحمه الله — وحنابلة أهل نجد بل كل المسلمين — لا يكفرون إلا من اتصف بالكفر — ولم يثبت عن واحد منهم تكفير البوصيرى . وغاية ما يقولون به ويعتقدونه هو :

(١) أن البوصيرى دعا الرسول والرسول ميت ، ودعاء الأموات شرك (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك)

(٢) لا ينكر أحد من المسلمين شفاعة الرسول (ص) تلك الشفاعة التي أوضحها الله سبحانه في القرآن الكريم وبينها الرسول (ص) (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟) (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) . وقال (ص) مجيبا لسائل سأله من أحق الناس بشفاعتك ؟ فقال من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه... فالإذن والرضا من الله وإخلاص العبادة له لا بد منها في الشفاعة

(٣) تكفير المعين لا يجوز إلا من ارتكب شيئا من المكفرات وأصر على ارتكابها بعد إيضاح الحق له ومات على ذلك، وكل مسلم يبرأ إلى الله من أن يصف البوصيرى بهذا الوصف — إذ لا يمكن الجزم بخاتمته . وليكن حسن ختام كلمتنا هذه تحية — من ربى نجد مضمخة بأريج شيحه وعراره للأستاذين الجليلين الطنطاوى والنجار — وشكرا عطرا للقائمين على هذه المجلة الغراء

عبد الرحمن بن دريعم

وكان فرعى يهتز لوقع خطاها وهى تتخطر فى حجرتى ؛ وكان قلبى يثب لخفيف ثوبها إذ تأخذ فى خلع ثيابها فتدع ثوباً يقع ، وتخرج منه عارية مخجلة ، وكنت أحس من ريح غلالتها الملامسة انحلالا رخيا يسرى فى أعضائى وأطرافى جميعاً ...

وشعرت بأنها ملتى فجأة واجتوتنى . إذ رأيت ذلك فى عينيها يوماً حين أصبحنا ، فقد كان من دأبى أن أحنو عليها كل صباح أرقب نظراتها الأولى . . . وكنت أنتظر — وصدرى يدور به الحنق ويحرجه الكره والاحتقار معاً — أنتظر مترقباً نظرات ذلك البهيم النائم الذى يهيمن على فأنا له عبد ذليل ، ولكن ما تكاد تبدو لعينى حدقتاها الشاحبتان كليلتين سقيمتين إثر الأحضان الأخيرة ، حتى تتقد حواسى ويضطرم كيانى . فكأنما نار تلهبنى فتستنزف كل عزمى وقواى ، ولكنها حين ذلك اليوم طالعتنى بنظرة مختلفة حزينة يائسة لا ترجو من العالم شيئاً

آه ! حقا رأيت ذلك وعلمته ، ولقد شعرت به للتو وفهمته ، إذ انتهى كل شئ ؛ انتهى كل ما ترجو إلى الأبد ، وعندى على ذلك الدليل يقوم فى كل ساعة وأخرى ؟

فإذا ما عانقتها صدفت عنى قائلة : « هلا تركتنى إذن ؟ » أو قبلتها فتقول : « إنك لبغيض ! » أو تقول : « أفلن أجلس حيناً وادعة ؟ ! »

حين ذلك غرت ، ولكنى كما يغير الكلاب ... أثارت ما أثارت من ارتياب وكتمان وحيلة . علمت حقا أنها ما عزفت عنى إلا لتفسح مجالا لآخر تذكى عواطفه وتلهب حواسه . . .

غرت غيرة هادرة طائشة مجنونة ، ولكنى لم أكن مجنونا . كلا ! حقيقة كلا ! وانتظرت ، آه ! ثم حنوت عليها ولم يخب ظنى ولم تخدعنى عيناها إذ ظلتا باردتين مثقلتين ، وقد تقول حينذاك : « إن الرجال لتؤذينى وتسئمنى » ، وكان ذلك حقا

غدوت حينئذ غيوراً منها نفسها ، ومن عزوفها ونفورها ؛ غيوراً من فراغ لياليها ووحدتها ؛ غيوراً من حركاتها وإشاراتها ، ومن عقلها الذى أستشعر دائما عاره ؛ غيوراً من كل ما أتوهم وأحدس وأرى . وقد تلقانى صبح ليلة من لياليا المضطرمة ، بنظرة رضية ناعمة ، كأنما خالطت روحها شهوة فحركت من رغباتها . . . حينئذ يحتدم قلبى حنقاً فتختنق أنفاسى فى صدرى

التحرج ، وتصرخ رغبة فى نفسى أن أخنقها ، وأهشم عظمها تحت ركبتى ، وأنشب فى جيدها أظفارى ، حتى تقر بمخازيها المخلة وتفضح أسرار فؤادها المرذول

أبى مس من جنون ؟

— كلا !

فهأنذا قد انتعشت فى إحدى الليالى وانتشيت واستشعرت إحساساً جديداً يخالطها ، وكنت واثقاً من هذا تمام الثقة ؛ فقد كانت تتمتم كما تفعل بعد العناق عادة ، ونظراتها توقدت واضطرمت وذراعاها قد شاع فيهما الدفء والحيا ، واضطرب كيانها أجمع إذ تتحكم فيه الرغبة الثائرة الجموح . وضاعت منه روائح خفية مسكرة ، هى روائح الحب الذى صرع الفؤاد وأعمى البصيرة

وتغابيت ، ولكن أحاط بها انتباهى كالشرك ، ومع ذلك فما كشف لى منها عن شئ

وتريثت أسبوعاً ، فشهراً ، ففصلا . والآن رأيت جهومتها قد زالت وتدفقت فيها حميا مبهمة ، ثم استراحت إلى حياة قوامها عناق ، وعمدتها قبل

وفى لحظه وامضة أدركت : فما بى مس من جنون ! وإنى لأقسم أن ليس بى مس من جنون !

كيف أقص ذاك عليك ؟ كيف فهمت ؟ كيف أبين لك الشئ المبهم المقوت ؟ !

إليك ما نبهنى إلى كل شئ : فى تلك الليلة التى حدثتك عنها كانت عائدة من نزهة على صهوة جواد فسقطت عنه . وقد جلست ليلتئذ أمامى فى مقعد وثير متوردة الوجنتين ، مخمرة العينين ، مرضوضة الساقين ، صدرها يعلو ويهبط مثل أمواج المحيط . لقد أدركت كل شئ حين رأيتها . إنها تحب ! ولم أستطع أن أخادع نفسى !

حينذاك فقدت شعورى وكرهت أن أنظر إليها . فتحولت إلى النافذة وهناك بصرت بخادم يقود جواداً من عنانه يثب ويثب . . . أما هى فقد نظرت الجواد الفتى الشابى ، وأتبعته بصرها حتى غاب فاستلقت وغفت . . .

وظفقت أبحث طوله الليل فى ذلك . وخيل إلى أنى أوغل

فى غموض ما كنت أتوقعه من قبل . ومن زعم أنه عجم عود النساء الأعوج ، وسبر رغباتهن التضاربة ؟ ومن ادعى أنه فهم تقلباتهن الغادرة ورغباتهن السافلة ؟

* * *

كانت تخرج صباح كل يوم على صهوة الجواد إلى الغاب والسهول ، ثم تعود لاغبة مكدودة فى كل مرة ، كما تفعل عادة بعد أن تكت عنها نوبة من الحب الطائش . الآن قد فهمت ، فغدوت غيورا من الجواد النهد الكريم ، واجدا على النسيم العاشق إذ يحتضنها بينا تنطلق فى شوط سريع أهوج ؛ وغدوت حاقدا على أوراق الشجر إذ تقبل أذنيها عرضا ، حاسدا لأشعة الشمس إذ تلثم جبينها من بين الغصون ، ولذلك السرج إذ يحملها ويلمس فخذيها البضتين

كان هذا كل ما يسرها وينويها ، ويطلق أسارير محياها ويغريها ، وكان هذا كل ما يكدها ويضنيها ، فتلقانى متعبة لاغبة إلى حد الإغماء ...

وأزمعت الانتقام لنفسى . وكنت أتلطف معها فى الخطاب متلطفا مدللا ، وكنت أمد إليها يدى لتعتمد عليها حين تقفز عن صهوة الجواد بعد أشواطها الهوجاء المضنية . وكان الجواد يرمقنى ثم يفحص الأرض صبوة وفتوة . وكانت تدلله وتربت على كتفه ، أو تحتضن أنفه اللاهث . ولا تنسى أن تمسح على رأسه وأصداغ فمه المزبد . وكان ريحها العطر ينضوع من جسد تصيب منه عرق أعرف أريجه وسط الليل . وكان هذا العطر يختلط فى أنفى بريح الجواد الأسهب

وطفقت أتحين الفرصة وأتربص الدوائر . لقد كانت تسير كل صباح فى أحراج من السدر توغل فى الغاب ... فى يوم غدوت مع الفجر ، وفى يدى حبل متين الفتل ، وفى صدارى مسدسان محشوان ، كأنى ذاهب إلى مبارزة

وعدوت نحو الطريق التى تحب ، وربطت الحبل فى جذعى شجرتين متقابلتين ، ثم تمقبتها فى الأحراج

وكثيرا ما خبرت الأرض بسمعى . والآن سمعت وقعا رتيبا من بعيد . وبصرت بشئ من بين الأغصان يسبح فى الهواء سبحا. آه ! ... لم أخدع فقد كان هو الجواد النهد الأصيل . وأما هى فقد كانت نشوى من فرط السعادة محمرة الوجنتين . وتبدلت نظرات عينيها فهى الآن طروب لعوب ، وتطلقت أعصابها من الهم واستراحت إلى تلك القسوة المنزلة

ولما أن كبا الحصان بمقدمه تهشمت عظامه ، وطرح بفتاتى بعيداً فلففتها بين ذراعى القويتين حينذاك على حمل ثور سمين . وبعد أن وضعتها على الأرض فى هينة ورفق دنوت منه « هو » وقد كان يحملق فينا حينذاك ويحاول أن ينهشنى ، فأطلقت عليه الرصاص فى الأذن فخر صريعا يتشحط فى دمائه الثرة وقتلته . . . كما يقتل الغريم !

ولكنى أنا نفسى سقطت على الأرض ووجهى قد أدمته جلدتا سوط كان فى يدها . ولما أن تأهبت لأن تلهينى بالثالثة أفرغت فى جوفها الرصاصة الأخرى . .

فخبرنى بربك أكان مابى مسا من جنون ؟ !

س . م

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة للمجلد الأول من كتاب

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

وحي الرسالة

نصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

المجلد الأول

المجلد الثاني

المجلد الثالث

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبعت طبعا أنيقا على ورق صقيل ، وقد بلغت عدد صفحات كل منها خمسمائة صفحة ونيفا .

وهي تطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمن كل مجلد أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

مطبعة الرسالة